الجواهري ومكافحة الصهيونية العالمية بين فاجعتي النكبة والنكسة

أستاذ مشارك دكتور صادق فتحي دهكردي (الكاتب المسؤول)
قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة طهران/ فرديس فارابي/ قم/ إيران
أستاذ مشارك دكتور يدالله ملايري أستاذ مشارك دكتور ناصر قاسمي
أستاذ مشارك دكتور عبد الرسول إلهايي

Jeweler and the fight against global Zionism between the tragedies of the Nakba and the setback

Associate Professor Dr. Sadiq Fathi Dekhdi (Author responsible)
Department of Arabic Language and Literature / Tehran University / Faris Farabi / Qom / Iran
Associate Professor Dr. Yadallah Malairi
Associate Professor Dr. Naser Qassimi
Associate Professor Dr. Abdel Rasoul Elhayy
rasolelhaei@yahoo.com

Abstract

After the end of the Second World War, the Arab and Islamic peoples tried to search for themselves after obliterating their identity through the influence of factors beyond their control and purely colonial motives. The writers and poets ridiculed their art to shed light on the issues of their societies, Where the tragedy occupied a wide area of poetry «Mohammed Mahdi Jeweler», which was filmed the most accurate portrayal and employs his literature to warn of the consequences of the plot that was planned for the Aqsa Mosque was his poems torch carried in the night of the nation at that time.

This research shows the position and position of the Jeweler towards the Palestinian cause, the Palestinian Nakba and the Nakba, and how he hoped for the Palestinian and Arab revolutionaries and played a prominent role in raising the awareness of the Arab and Islamic peoples.

The reading of this research shows that the jeweler made the poem a cry to warn against the consequences of the conspiracy that led to Palestine and almost swallowed up other Arab regions to annex it to the fate of Andalusia and urged the Palestinian and Arab youth to fight the invaders and regain the occupied Palestine by force. And removed the mask for the failure of Arab leaders, carrying the defeats inflicted on the Arab nation. He criticized the policy of normalization and acceptance of the status quo, and ridiculed the solutions of surrender.

Keywords: The Palestinian Cause, Muhammad Mahdi Al-Jawahiri, Arabic Poetry, The Kifah, The Nakba, The Nakba.

الملخص

حاولت الشعوب العربية والإسلامية بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أن تبحث عن ذاتها بعد طمس هويتها بتأثير عوامل خارجة عن إرادتها وبدوافع استعمارية بحتة، فسخّر الأدباء والشعراء فنهم لإضفاء النور على قضايا مجتمعاتهم وعلى رأسها القضية الفلسطينية. حيث احتلت هذه المأساة حيزاً واسعاً من أشعار «محمد مهدي الجواهري» الذي صوّرها أدق تصوير ووظّف أدبه لينبّه من مغبة المؤامرة التي دُبّرت للأقصي المبارك فقد كانت قصائده شعلة حملها في ليل الأمة الدامس آنذاك.

ويوضّح هذا البحث رؤية وموقف الجواهري تجاه القضية الفلسطينية بِن فاجعتي النكبة والنكسة وكيفية بعثه الأمل في نفوس الثوار الفلسطينيين والعرب ولعبه دوراً بارزاً في توعية الشعوب العربية والإسلامية وفضحه تواطؤ الحكام المتخاذلين حيال ما يتعرض له القدس الشريف من مؤامرات عالمية.

إن قراءة هذا البحث تُبين بأن الجواهري جعل القصيدة صرخة ليحذر من مغبة المؤامرة التي دُبّرت لفلسطين وتكاد تبتلع مناطق عربية أخرى لتلحقها بمصير الأندلس، وحث الشباب الفلسطيني والعربي على مكافحة الغزاة واسترجاع ما احتل من فلسطين بالقوة. و أزال القناع عن تخاذل القادة العرب، محملاً إياهم الهزائم التي تلحق بالأمة عربية. وانتقد سياسة التطبيع والقبول بالأمر الواقع، وسخّر من الحلول الاستسلامية.

الكلمات المفتاحية: القضية الفلسطينية، محمد مهدي الجواهري، الشعر العربي، الكفاح، النكبة، النكسة.

المقدمة

لقد تعرضت الأقطار العربية والإسلامية خاصة بلاد الشام لهجمات وحشية على مدى التاريخ، إذ قتل الصليبيون عشرات الآلاف من شعوب المنطقة في هجماتهم وحملاتهم الإستعمارية. وبالرغم من أنّ فترة الإنتداب والإستعمار ذهبت دون رجعة إلّا أنّ المستعمرين ظهروا بأشكال جديدة خلال القرن العشرين ومازالت هذه الظاهرة مستمرة حتى يومنا هذا في الشرق الأوسط وبأعتقادي ما نشاهده من دمار وصراع مفتعل في سوريا والعراق وسائر الأقطار العربية والإسلامية خلال السنوات الماضية وفي فلسطين طيلة أكثر من ستة عقود إنّما استمراراً للمؤامرات الإستعمارية والاستكبارية التي بدأت بهجوم القائد الفرنسي «نابليون بونابارت» على مصر التي احتلها بسهولة عام ١٧٩٨م.

ولفتت هذه الحملة الأنظار إلى مدى ضعف الدولة العثمانية آنذاك وفتح شهية الإستعمار الأوروبي لاقتسام تركة هذه الدولة. وبما أنّ اللوبي اليهودي كان يسدّد نفقات حروب نابليون، فقد كان الأخير أول زعيم سياسي أوروبي يصدر دعوة رسمية لليهود لتحقيق آمالهم وإقامة كيانهم على أرض فلسطين عام ١٧٩٩م، حيث وصف اليهود في رسالة له في العام ذاته بأنهم «ورثة فلسطين الشرعيين» وطلب منهم أن يتعاونوا معه لتحقيق أملهم المنشود والعودة إلى فلسطين وإنشاء وطنهم اليهودي هناك[١].

ودخلت القضية الفلسطينية مرحلة خطيرة بتبنّي بريطانيا المشروع الصهيوني حيث أصدرت في نوفمبر ١٩١٧م وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وتمكّنت من إتمام احتلالها للأرض المباركة في سبتمبر عام ١٩١٨م كما احتلت في سبتمبر /أكتوبر ١٩١٨م شرق الأردن وسوريا ولبنان[٢]، الأمر الذي فجّر ردود أفعال غاضبة في الدول العربية والإسلامية. و بعيد إنتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م وظهور ظاهرة الصهيونية العالمية التي تجلت في احتلال فلسطين، حاولت الشعوب العربية والإسلامية أن تبحث عن ذاتها عبر مواجهة الاستعمار والعصابة الصهيونية فسخر الأدباء والشعراء فنهم لإضفاء النور على قضايا مجتمعاتهم وعلى رأسها القضية الفلسطينية. حيث احتلت هذه المأساة حيّزاً واسعاً من أشعار «محمد مهدي الجواهري» الذي صوّرها أدق تصوير ووظّف أدبه لينبّه من مغبة المؤامرة التي دُبّرت للأقصى المبارك وعلاوة على تنبئه بنكبة فلسطين قبل وقوعها، إلّا أنه لم يصبه اليأس يوماً بل ظلّ يدعو إلى استرداد الحق المغتصب بالقوة.

وتبنت الثورة الإسلامية في إيران بعيد انتصارها عام ١٩٧٩م القضية الفلسطينية واضطلعت بأدوار مهمة في سياستها الداخلية والخارجية منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا، إذ وضعت الثورة مساندة المستضعفين خاصة المسلمين منهم في جميع أنحاء العالم ضمن مبادئها الأساسية. وينظر الشعب الإيراني إلى الثورة للقضية الفلسطينية كإحدى أهم القضايا العادلة في العالم بل أهم قضايا العالم الإسلامي بالمعنى الإستراتيجي حيث أعلن «السيد روح الله الموسوي الخميني» مفجّر الثورة الإسلامية تأييده ودعمه للشعب الفلسطيني ومقاومته قائلاً "إنه من الواجب علينا أن نبذل أقصى جهد لبحث مشاكل المسلمين ومساندة المناضلين والجياع والمحرومين"[٣]. وقد حدّد الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك في كل عام يوماً عالمياً للقدس ليكون فرصة مناسبة تمكّن المسلمين وجميع الأحرار في مختلف أنحاء العالم من شحذ الهمم ومساندة الفلسطينيين والاستعداد لتحرير أولى القبلتين ومن هذا المنطلق نرى ضرورة ملحة للتطرق إلى القضية الفلسطينية من وادي الأدب والشعر وإحيائها في الأوساوط العلمية الأكاديمية.

١ - محسن، صالح (٢٠١٢م)، القضية الفلسطينية؛ خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، بيروت: الزيتونة للدراسات والاستشارات، ص ٢٦.
٢ - المصدر نفسه، ص ٤١.
٣ - اسماعيل منصوري لاريجانى (١٣٧٧ه.ش)، سيرى در انديشه دفاعى حضرت امام خمينى، تهران: بنياد حفظ آثار وارزشهاى دفاع مقدس، ص ٥٧.

سؤال البحث:

حاولت في هذا البحث أن أجيب عن سؤال محوري واحد ألا وهو «كيف انعكست مكافحة الاستكبار المتمثّل فى العصابة الصهيونية في شعر محمد مهدي الجواهري بين فاجعتي النكبة والنكسة ؟»

فرضية البحث:

بدأ الجواهري رحلته مع فلسطين منذ بداية قرزمته الشعر حتى مضي أكثر من عقد على نكسة حزيران، وعبّر عن موقفه تجاه القضية الفلسطينية عبر استخدامه شتى أنواع فنون الإنشاء والبيان لحث الثوار والشباب الفلسطنيين وترغيبهم على النضال والجهاد من أجل تحرير أولى القبلتين.

خلفية البحث

عند البحث عن دراسات سابقة في أدب الجواهري عموماً وجدنا عدداً كثيراً من الأبحاث كانت قد كتبت في الدول العربية والجمهورية الإسلامية الإيرانية؛ فهناك دراسات مختلفة عن شخصية الجواهري وأسلوبه والظواهر المختلفة في شعره لما له من أهمية وشأن في الأدب العربي. وسلّطت الأضواء على جوانب مختلفة من شخصيته وأعماله الأدبية. لكن لدى بحثنا عن خلفية البحث في «مكافحة الاستكبار العالمي بين فاجعتي النكبة والنكسة في شعر الجواهري» بشكل خاص لم نجد دراسة مستقلة تتطرق إلى موضوع هذه البحث في داخل إيران وكل ما عثرنا عليه عدداً من الأبحاث والمقالات في عدد من الدول العربية لكن لم تكن لها علاقة وطيدة مع موضوع بحثنا هذا.

الجواهري؛ سيرته الشخصية والأدبية

ولد الجواهري "يوم الأربعاء، الـ٢٦ من تموز ١٨٩٩م. وسواء كانت ولادته في سنة ١٨٩٩م أو ١٩٠٠م أو ١٩٠٣م كما يردّد الشاعر غالباً، فإن ذلك لا يغيّر كثيراً، ويكون على كل حال مولوداً في أوائل القرن الـ٢٠، لكن الفترة التي ولد فيها ذات دلالة كبيرة. فقد رأت عيناه النور والدولة العثمانية تعيش أيامها الأخيرة وقد شاهد زوالها في صباه"[١]. وكانت ولادته بالذات في بيت قريب من «الصحن العلوي» في النجف الأشرف[٢].

نشأ الجواهري في بيئة النجف المحافظة وتربى في حضانة أمّه فاطمة ورعاية والده عبد الحسين، كما لقي عناية خاصة من خادمة الأسرة «تفاحة» التي كانت تهتم برعايته وتروي له قصصاً عن حياتها وحياة العبيد وكيفية بيعهم وشراءهم[٣]. وبسبب أفكاره وروءاه المناهضة للظم والطغاة فقد عاش الجواهري حياة الاغتراب ولكنه كان محل حفاوة وتكريم العديد من الدول والبلدان. فقد ذاق طعم الغربة في جميع مراحل حياته؛ من إيران، إلى براغ ثمَّ سوريا. فقد تغرّب في شبابه وترك العراق قهراً متوجهاً إلى إيران في أعقاب حركة الكيلاني عام ١٩٤١م هرباً من الأحداث العاصفة في بغداد، وبالرغم من أنه قيل كان يحمل جنسية إيرانية لكنه كان يتشوّق إلى العراق وذلك واضح في أشعاره التي أنشدها في إيران. وفي أيام كهولته بدأت غربته عندما استقر في براغ وانتهت بعودته إلى وطنه عام ١٩٦٨م. ولم تتركه لعنة الغربة التي ظلّت تطارده حتى أواخر عمره عندما غادر العراق واستقر في دمشق حتى وافته المنية وتوفي الجواهري في الـ ٢٧ من تموز ١٩٩٧م عن عمر ناهز الـ ٩٨ بالعاصمة السورية دمشق بعد ٢٠ عاماً من الإقامة فيها[٤].

قرأ الجواهري القرآن الكريم وهو في سن مبكّرة وأكبّ على كتب التراث يحفظها. وتم له ذلك بين أقرباء والده وأصدقائه حيث خطط له والده وآخرون أن يحفظ في كل يوم خطبة من «نهج البلاغة» وقصيدة من ديوان المتنبي فيبدأ الفتى بالحفظ طوال نهاره منتظراً ساعة الامتحان مساءاً بفارغ الصبر، وبعد أن ينجح في الامتحان يسمح له بالخروج فيشعر انه خُلق من جديد ثم يصاحب والده

١ - سليمان، جبران (٢٠٠٣م)، مجمع الأضداد؛ دراسة في سيرة الجواهري وشعره، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية، ص ص ١١- ١٠.
٢ - محمد مهدي، الجواهري، (١٩٨٨م)، ذكرياتي، ج ١، الطبعة الأولى، دمشق: دار الرافدين، ص ٣٥.
٣ - فرحان، اليحيى، أزمة المواطنة في شعر الجواهري، صص٦٥- ٦٣.
٤ - فيروز، حريرجي ومهدي، ممتحن ورحيم، انصاري بور، التناقض في شعر محمد مهدي الجواهري، فصلية دراسات الأدب المعاصر، جيرفت، العدد ١٥، ١٣٩١ه.ش، ص ١١٥.

إلى مجالس الكبار في المساء. فحفظ الآمالي، والبيان والتبيين، وأدب الكاتب، ومقدمة ابن خلدون، ودواوين الشعراء الذين استولوا على مشاعره طول رحلة العمر. كما أنه درس الصرف والنحو والبلاغة والفقه وما إلى ذلك مما هو معروف في منهج الدراسة آنداك على أيدي مشايخ النجف المعروفين، لكنه لم يلتزم بالتدرج العملي الذي جرى عليه طلبة العلم في النجف الأشرف.

وبعد مشاركته في ثورة الـ٢٠ ضد الانكليز بالنجف الأشرف، انتقل إلى بغداد حيث اشتغل مدة قصيرة في بلاط «الملك فيصل» الأول وكان لا يزال يرتدي العمامة، ثم هجر العمامة كما ترك الاشتغال في البلاط الملكي وراح يعمل بالصحافة، فأصدر مجموعة من الصحف وانتخب عدة مرات رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين ونقيباً للصحفيين.

وللجواهري نتاج شعري ضخم تطغى عليه سمة الخلط الزمني في ترتيب قصائده، إذ لم تكن الدواوين التي أصدرها على نظام ولم يكن الشاعر يلتزم بمنهج معيّن، فكثيراً ما أعاد في طبعة شعراً كان قد نشر في طبعات سابقة وربما كان يحذف قصيدة ويضيف أخرى أو يحذف أبياتاً ويزيد أبياتاً. بحيث يجد الباحث صعوبة لكي يستبين خط نموه الشعري. نشر الجواهري أول مجموعة شعرية له باسم «حلبة الأدب» عارض فيها عدداً من الشعراء المعاصرين والقدامى عام ١٩٢٨م، وفي عام ١٩٢٤م أعدّ للنشر مجموعة من شعره باسم «خواطر الشعر في الحب والوطن والربيع»، ثم أضاف إليها ما استجد له من شعر وبدأ طبعها سنة ١٩٢٧م باسم «ديوان محمد مهدي الجواهري» وعندما أنجز الطبع سنة ١٩٢٨م صدر بغلاف عليه اسم «ديوان بين الشعور والعاطفة». ولدى إقامته سبعة سنوات في «براغ» أصدر عام ١٩٦٨م ديواناً جديداً سماه «بريد الغربة» وبعد عودته إلى الوطن أصدر عام ١٩٦٩م ديوان «بريد العودة»، إلى أن أصدرت له وزارة الإعلام العراقية عام ١٩٧٠م ديوان «أيها الأرق». وبالتالي أصدر ديوان «خلجات» عام ١٩٧١. ومن مؤلفاته تمكن الإشارة إلى «مختارات الجمهرة»، و«من كل ديوان أجمل ما فيه»، و«عمر بن أبي ربيعة»، و«الأخطل» و«ذكرياتي» (في جزأين)، و«جناية الروس والإنجليز في إيران» (ترجمة عن الفارسية)، «بين العاطفة والشعور»، و«الجواهري في العيون من أشعاره»[١].

الجواهري ومقارعة الاستكبار العالمي بين فاجعتي النكبة والنكسة

أسفر إعلان الاستكبار العالمي عن إقامة كيان الاحتلال الاسرائيلي على الأراضي الفلسطينية عن بدء الحرب بين العصابة الصهيونية ودول الطوق أي الدول العربية المجاورة للأرض المقدسة وحقّق الجانب العربي في بادئ انتصارات لكن سرعان ما تدخل مجلس الأمن الدولي تحت ضغط القوى المتغطرسة وفرض وقفاً لإطلاق النار في ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٨م وبالرغم من التزام العرب بالقرار الدولي إلّا أن قوات الاحتلال استأنفت القتال بعد أربعة أسابيع في جميع الجبهات حيث اتخذت المعارك مساراً مختلفاً وتعرضت القوات العربية لسلسلة من الهزائم واستطاعت العصابة الصهيونية من فرض سيطرتها على مساحات واسعة من أراضي فلسطين التاريخية[٢] وكل هذا كان يحدث أمام عيني الجواهري الذي كان يراقب الأحداث عن كثب ما أدى به أن يسخّر فنه لتشجيع وحث الفدائيين على المضي قدما في مواجهة العدو الصهيوني وحُماته.

وخلال فترة بين فاجعتي النكبة والنكسة شجّع الجواهري الانتفاضات بغية مكافحة مخططات الاستكبار وحرّض على الأخذ بالثأر لفلسطين وحث المناضلين والفدائيين على مواصلة خيار المقاومة والحضور الثوري في ساحات النزال. وكرّر دعوته العرب إلى الوحدة وتوحيد الصفوف للذود عن حياض الوطن الذي سبق ووصفه بـ «الممزق» في قصيدة «الوحدة العربية الممزقة» التي تعتبر باكورة شعره الفلسطيني. كما أنه توقف في فلسطينياته أمام أسباب هزائم الدول العربية وفساد أنظمتها والتواطؤ الرسمي حيال فلسطين وظلّ يدعو خلال حوالي عشرة أعوام الأولى من هذه الفترة إلى استراد الحق المغتصب وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرض المباركة. وصام خلال العقد الثاني من قول الشعر في فلسطين حيث لم يجد صوته آذاناً صاغية من قبل الأنظمة العربية الرسمية.

١ - محمد مهدي، الجواهري، ديوان الجواهري، ج ١، صص ٢١-١١.
٢ - محسن، صالح، القضية الفلسطينية؛ خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة،صص ٦٣-٥٦.

ومن خلال تورقنا لديوان الجواهري وجدنا القصائد الأربع؛ «فلسطين والاندلس» (١٩٤٨م) و«فلسطين» (١٩٤٨م) و«اللاجئة في العيد» (١٩٥٢م) و«في ذكرى عدنان المالكي» (١٩٥٧م) تتطرق الى مكافحة الاستكبار المتمثّل في العدو الصهيوني بين فاجعتي النكبة والنكسة.

١- «فلسطين والاندلس» (١٩٤٨م)

بعد مضي حوالي ثلاثة عقود على إعلان بريطانيا وعد بلفور المشؤوم، قامت العصابة الصهيونية المدعومة غربيّاً بطرد أكثرية المواطنين الأصليين من ديارهم وهجّرتهم من منازلهم ومدنهم وقراهم وسلبت أراضيهم وأملاكهم ومقتنياتهم، لكن الجواهري لم ينصدم من هذا الحدث الجلل لأنه سبق وحذّر من وقوعه وصوّر ضياع فلسطين شعراً واستنهض الدول العربية والأحرار لمكافحة العصابة الصهيونية والدول المستكبرة ومخططاتها الرامية إلى ابتلاع المنطقة. فناشد الجواهري «عبد الإله بن الملك علي بن الشريف حسين الهاشمي» الوصي على عرش العراق آنذاك أن ينقذ فلسطين بجنوده كي لا تصبح كالأندلس التي ضاعت من أحضان الأمة الإسلامية. فأنشد قصيدة «فلسطين والأندلس» ذات الأبيات الأربعة وتحدث فيها عن هذه القضية بشكل مقتضب جدا حيث هول الكارثة لم يكن يسمح بإطالة الحديث. فالتفت إلى أولى القبلتين ووجدها تسير بسرعة لتلتحق بالأندلس وهما وجهان لمأساة واحدة؛ لقد أبادت إسبانيا الشعب الأندلسي بحجة تهديده وحدة العقيدة الكاثوليكية فوق أرض الجزيرة الإيبيرية بينما راح الكيان الصهيوني يبيد الفلسطينيين على نفس الطريقة وفناشد الوصي على عرش بلاده لينقذ الأرض المباركة ويحول دون ضياعها على غرار ضياع الأندلس:

ناشدتُ جندَكَ جندَ الشعبِ والحرسا أن لا تَعودَ فلسطينٌ كأندلُسا[١]

ويتوجه الجواهري إلى عبد الإله بالخطاب ثانية، ويذكّره بجده «الحسين بن علي الهاشمي» مؤسّس المملكة الحجازية الهاشمية وأول من نادى باستقلال العرب من حكم الدولة العثمانية. وطالبه أن يكون امتداداً لجده الذي قاد الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م والذي ووري جثمانه في القدس الشريف، أن ينتصر لأرض المسلمين ويقسم عليه أن يجعل الدماء تراق هناك في سبيل استرداد العزة والكرامة للأمة الإسلامية، حتى تسقي هذه الدماء قبر جده الحسين بالمسجد الأقصى:

ناشدْتُك الله أن تسقي الدماءُ غداً غَرْساً لجَدِك في أرجائِها غُرسا[٢]

ويستمر في تأكيده على مبدأ العنف والتثوير في استرجاع الأرض المحتلة، مستفيداً من التاريخ وما حدث للأندلس، ومن خلال المأساة الفلسطينية يتوقف أمام نقاط الضعف في مسيرة التاريخ العربي بنقد تملؤه الحكمة والمنطق. فمضى مخاطباً مشاعر الوصي على عرش بلاده عبد الإله بأن روح جده الحسين بن علي لهاشمي والمبادئ السامية التي قضى في سبيلها، تناشده أن يهب لنجدة فلسطين. وأن قبر جده الزكي يشكو لاهثاً الأحداث التي تحدث في القدس الشريف ويستغيث بحفيده، فهل من مغيث؟ فيقول:

تلمسِ الجذفَ الزاكي تجدْ لَهثاً من الشَّكاةِ وتسمعْ للصدى نَفَسا[٣]

ويصف فلسطين والظلام يلفها من كل حدب وصوب، والمأساة تتفاعل يوم بعد يوم. وبما أنه لا يرى بارقة أمل في الأفق لعودة المشردين وتطهير الأرض المسلوبة دون عنف وكفاح ونضال، يعود ويقسم بالله على عبد الإله للمرة الثانية في هذه القصيدة ذات الأبيات الأربعة بأن ينتصر لها ويهديها قبساً لإزاحة هذه الظلمة وأن يخرجها من محنتها التي لا حول لها ولاقوة للتخلص منها بمفردها. فهو يعتقد بأن القوة هي التي تعيد فلسطين إلى أحضان الأمة، وكشف غمة فلسطين يأتي من جراء مشاركة الجيوش العربية بما فيها الجيش العراقي في الحرب العربية ضد الصهاينة، فيقول:

١ - محمد مهدي، الجواهري، ديوان الجواهري، ج ٣، ص ٣١٥.
٢ - المصدر نفسه.
٣ - المصدر نفسه.

ناشدْتُك اللهَ والظلماءُ مطبقةٌ على فلسطينَ أن تُهدي لها قَبَسا[١]

وقد لبّى عبد الإله دعوته، وأوعز للجيش العراقي للمشاركة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م مع ستة جيوش عربية أخرى من مصر والأردن وسوريا، ولبنان والسعودية التي انتهت بهزيمة الجانب العربي.

٢- «فلسطين» (١٩٤٨م)

وبعد فشل مساعي الدول العربية في الأمم المتحدة في الحصول على استقلال فلسطين وإنهاء الانتداب قبيل فاجعة «النكبة»، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧قرارها المشؤوم رقم ١٨١ القاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربية ويهودية. وأعطى القرار حوالي ٥٥% من أرض أولى القبلتين لأقلية يهودية دخيلة مهاجرة تمثّل نحو ٣١% من السكان ولاتملك أكثر من ٦% من الأرض[٢]. فاندلعت الحرب فور إعلان قرار التقسيم بين الفلسطينيين وقوات الاحتلال.

وتحمّل أبناء فلسطين أعباء الحرب في الأشهر الستة الأولى بمساعدة عدد محدود من المتطوعين العرب والمسلمين، إذ رفضت الدول العربية إرسال جيوشها إلى أن تخرج بريطانيا من فلسطين رسمياً. وبخروج قوات الانتداب من الأرض المباركة في ١٩٤٨/٥/١٥م، أعلنت الحركة الصهيونية عن قيام دولة الكيان الصهيوني، ورفض الجزء الخاص بإنشاء دولة عربية في فلسطين. فالجواهري الذي كان مسايراً لتطورات القضية الفلسطينية وأحداث الحرب عن كثب، شارك المجاهدين نضالهم ضد الصهيونية بنظمه قصيدة «فلسطين» التي أنشدها عند اشتداد رحى المعارك وأشاد ببطولات المجاهدين في ساحات النزال وتفاعل مع القتال، بعد أن سئم الاستكانة والاستسلام، وحضّ العرب والمسلمين على الالتحاق بجبهات القتال والذود عن حياض الوطن وحثّهم على الوحدة ورصّ الصفوف وتحمّل المشاكل. والقصيدة كلّها فخر بالنزال والتضحيات وعدم الاكتراث بالجراج والحتوف فهو الذي كان ولايزال يحرّض على الأخذ بالثأر وتحرير فلسطين، وجد الأجواء مؤاتية ليحضّ على الحضور في ساحات النزال، وتوحيد الصفوف والذود عن حياض الوطن فراح يمجّد الفدائي الذي يبدو يتدلّل في ميادين الجهاد، وأشاد ببطولاته بإعتباره قمة الأمل والرجاء والمعوّل علية لاسترداد العزة والكرامة للأمة العربية:

دَلالاً في مَيادينِ الجِهادِ وتِيهاً بالجِراحِ وبالضِّمادِ
ورَشْفاً بالثغورِ من المَواضي وأخذاً بالعِناق من الجِهاد[٣]

ويواصل حثه المجاهدين على تحمّل مشقات القتال والتجلّد في سبيل الدفاع عن عزة وكرامة الأمة، طالباً منهم مزيداً من الإقدام والشجاعة في مواجهة المصاعب، مصوراً إياهم وهم يبذلون أعز وأغلى ما لديهم وهي الروح الإنسانية في سبيل الوطن وشرف البلاد. ويريد من المقاتلين توطين النفوس والتضحية بأرواحهم من أجل ما هو أسمى و أنبل منها، فيقول:

وَ تَوطيناً على جَمرِ المنـــــايا و إخلاداً إلى حَرِّ الجِـــلاد
و بذلاً للنفيسِ مِن الضحـــايا فَـأنْفَسُ منهم شَـــرفُ البلاد[٤]

وينادي الفدائيين والمجاهدين الذين توافدوا على فلسطين لتحريرها بـ «حماة الدار» ويشكو لهم حال الأمة المرزي ويكلّمهم كأنه بينهم، فيشد أزرهم باعتبارهم الأمل والمدخّر لمثل هذا اليوم. فيقول لهم بأن هناك أزمة كبرى ألمَّت بالوطن فأفتقدكم الوطن وناداكم للدفاع عنه والذود عن حياضه ودحر الفلول التي انهالت كالجراد عليه، لا يسعكم سوى أن تنهطلوا كالمطر بغزارة على فلسطين لتغسلوا عار استيطان الصهاينة هناك:

حُماةَ الدارِ مسَّ الدارَ ضُرٌّ ونادى بافتقادكُمُ المُنادي
أرادَتْكُمْ لِتكفوها فُلُوْلاً مُعرِّزةً كأرتالِ الجَراد

١- المصدر نفسه.
٢ - خولة، صامري، الصراع العربي الإسرائيلي؛ حرب ١٩٤٨م أنموذجاً، صص ٤٣-٣٩.
٣ - محمد مهدي، الجواهري، ديوان الجواهري، ج ٣، ص ٣١٩.
٤ -محمد مهدي، الجواهري، ديوان الجواهري، ج ٣، ص٣١٩.

وشاءتْكُمْ لتنهطِلوا عليها هُطولَ الغيثِ في سَنةٍ جَماد[١]

ثمَّ يستذكر التاريخ والقائد الإسلامى «صلاح الدين الأيوبي» مؤسس الدولة الأيوبية الذي انتصر للقدس الشريف وحارب الصليبيين في معركة «حطّين» التي وقعت في ٤ يوليو ١١٨٧م، ويصوّر روحه تهبّ خارجة من قبره مرعوبة ومفزوعة لما آلت إليه الأمور في القدس الشريف، وتساءل عن دعم الدول الغربية العظمى وعلى رأسها بريطانيا وأميركا، للعصابة الصهيونية ضد الفلسطينيين، الأمر الذي عبّد الطريق لإعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين، وعن مخططات الأعداء تجاه العرب وآخر المستجدات على الساحة الفلسطينية والمؤامرات الغربية التي أدت إلى إعلان أقامة الكيان الصهيوني حيث قامت حرب ١٩٤٨م على إثره؛ إذ الجانب الغربي كان ولازال يضمر الحقد والضغينة تجاه المشرق والأقطار الإسلامية، بينما الدول العربية غافلة عن نواياه وتقف محايدة حيال ما يرتكبه الغربي في الشرق الأوسط. فبالرغم من أن صلاح الدين الأيوبي كان قد أخرج الصليبيين من الأرض المباركة في القرن الثاني عشر وحرّر واستعاد الأراضي المقدسة التي كانوا قد استولوا عليها في أواخر القرن الحادي عشر، لكن الدول الغربية باتت اليوم تعود إلى الأرض المباركة عبر العصابة الصهيونية. فيقول:

وروحٍ من "صلاح الدّينِ" هَبَّتْ من الأجداثِ مُقلَقَةَ الوِساد

تَسَاءَلُ هل أتَتْ دوَلٌ ثمانٍ ضِخامٌ ما أتاه على انفراد

بلى كانوا ومَنْ عادَوْا تبيعاً وكنتُ المستقِلَّ ومَن أُعادي[٢]

ثمّ يعبّر الجواهري عما يجيش في قلبه من ألم وحزن تجاه فلسطين وما دُبّر لها من مخططات عدوانية. ويعود لمناجاة المناضلين الأبطال والمعوّل عليهم في شدائد الشعوب. ويشكو لهم إطالة القضية الفلسطينية وعدم قدرة الأمة على حسمها، فمأساتها لم تترك للشاعر وشعره سوى جرح عتيق يتجدد يوم بعد يوم. فهو كان قد بكى لفلسطين منذ صغر سنه وأنشد اشعارا فيها منذ أوائل عشرينياته وها هو أشرف على الخمسين عاماً ولم تحسم هذه القضية. وطيلة هذه الفترة لم يألُ الشاعر جهداً إلّا وبذله في سبيل خدمة هذه القضية ومساندتها:

حُماةَ الدّارِ لم تَتْرُكْ لشعري فِلَسْطينٌ سوى كَلِمٍ مُعاد

بَكَيْتُ مصابَها يَفَعاً وواقَتْ نِهايَتهُا وخَمْسونٌ عدادي[٣]

وبمناسبة مناجاته مع المناضلين يبوح لهم بأسرار، ويبيّن لهم مواضع ضعف الأمة طيلة الأعوام الماضية وأسباب هزيمتها وعلى رأس هذه الأسباب هو تخاذل وفساد وتقاعس الحكام العرب فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية. فكان العرب يتناومون إلى قلوب مشرحة لا تشعر بما يجري للأمة ويستجيرون إلى حكام انتهازيين يستقلون ما أمتهم فيه لمصالحهم الخاصة ولاتهمّهم المأساة التي تحل ببلادهم. ويصور الزعماء بأنهم يمتلكون سيوفاً كليلة لا تقطع شيئاً وهم يريدونها لا تقطع ولكن حمالتها لماعة تغر الناظر اليها، فالكذب والنفاق والخداع من صفات هؤلاء الزعماء الذين يتباكون على القضية الفلسطينية ويتشدقون بتحرير القدس الشريف، لكن يصحّ عليهم المثل القائل «أسمع جعجعة ولا أرى طحناً»:

فكنّا نسْتَنِيمُ إلى قُلوبٍ قَدَدْناها من الصُّمَ الصِلاد

وكنّا نستجير إلى زعيمٍ كلِيلِ السيفِ لمّاع النِّجاد

كَذوبِ الدَّمع يسمَنُ في الرَّزايا ويَدْعَرُ وهو يَرْفُلُ في الحِداد[٤]

وبعد شرحه أحول الأمة العربية وسوء أداء حكامها طيلة الأعوام الماضية حيث بعدت عن مجدها السابق، يبوح بنتيجة إهمال الحكام وتقاعسهم حيال ما يتحسّسه المواطن وهي ليست سوى النكسات والنكبات. وهذه النتيجة ليست مستغربة ولا هي سرّ أو لغزٌ

١ - المصدر نفسه.
٢ - المصدر نفسه، ص ٣٢١.
٣ - المصدر نفسه.
٤ - المصدر نفسه.

يصعب على المرء حله، فكما مر ذكره ولتلك الأسباب آلت الأمور في فلسطين كما هي عليه الآن، إذ أحتلت على يد الصهاينة وها هم قد أعلنوا كيانهم المزعوم قبيل فترة وجيزة إذ نشبت الحرب على إثر هذا الإعلان، مبيناً بذلك سبب الهزائم التي منيت بها الدول العربية فباتت جلية مثل شمس الضحى وأتضحت الأمور كما هي، فلا يمكن للحكام أن يخدعوا الناس بعد النكبة الأخيرة:

حماةَ الدارِ ما النَّكساتُ سِرٌّ ولا شيءٌ تَلَفَّفَ في بِجَاد
و لا لُغْزٌ يَحارُ المرءُ فِيهِ فَيَجهلُ ما سُداسٌ مِنْ أُحَاد
ولكِن مِثلَما وَضَحتْ ذُكاءٌ ونَوَّرَ حاضِرٌ منها وبادي[١]

ويستمر في فضح التواطؤ العربي حيال الأرض المباركة بقوله إنه ما كان لفلسطين أن تبقى محتلة من قبل جهات أجنبية، لو كانت الدول العربية المجاورة لها تنهض لنصرتها ودحر القوات الغازية. وإضافة على هذا، فإن السلطات جوّعت الشعوب واحتقرتها وظلمتها وجعلت الناس تتشغل بأمورها اليومية من أجل الحصول على لقمة خبز تسد بها جوع أسرتها، فالحكام سرقوا الشعوب وعبثوا بأقدارهم وقيدوهم، فما يُنتَظَر من الشعوب التي سُرقت وأُذلّت؟، فقال:

وما كانتْ فِلَسْطينٌ لِتَبقى وجيرتُها يُصاحُ بها بَداد
وسِتُّ جِهاتِها أخذت بجوعٍ وجهلٍ، واحتقارٍ، واضطهاد
شعوبٌ تسترَقُّ فما يُبَقّي على أثرٍ لها ذُلُّ الصِّفاد[٢]

ويصف المناضلين بالرجال الصائمين بإرادتهم وهم يمتلكون أنواع الأطعمة، في إشارة له للتعبير عن عزيمة وإيمان الأبطال الذين راحوا يسطرّون ملاحم باسلة في مقارعة العدو الصهيوني. ويرسم لهم خارطة النصر في المعركة التي خاضوها ويحثّهم على الصبر والعزيمة، لأنه لا خيار لهم للانتصار سوى الصبر وتعبئة القوى في مواجهة العدو، فلا يجوز التهاون والتكاسل في هذه المعركة، بل ينبغي على العرب أن يبذلوا كل ما بوسعهم لحسم هذه المعركة من العتاد بالأرواح وبالسلاح، فيقول:

رُجولةُ صائمينَ ولو أرادوا لكانوا الطاعمينَ بأيّ زاد
وميدانٍ وليس لنازليهِ سوى الصَّبرِ المثلَّم من عَتاد[٣]

ويناجي حماة الدار للمرة الأخيرة في رائعته هذه، ويؤكد لهم سنّة الله سبحانه وتعالى في زوال الظلم ولو طال الانتضار ومرّ الزمن، لأن الباريء يُمهل ولا يُهمل. وكما أن كل حشد سينفض وكل شمل مفرّق متشتت سينجمع بعد حين، ما عليكم فعله هو الصبر والعزيمة في الكفاح لتحصوا على النصر النهائي. فمصير الظلم مهما استشرى فهو إلى اضمحلال، والظالم مهما تجبّر وتكبّر فإنّ مصيره إلى زوال، لأنّ الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر، لأنه لا يمكن أن ترجع عقارب الزمن إلى الوراء، وهذه سنة ربانية ولا تبديل لسنن الله تعالى، فيقول:

حماةَ الدار كلُّ مَسِيلِ ظُلْمٍ وإن طالَ المدى فإلى نَفاد
وكلُ مُحتَشَّدٍ فإلى انفِضاضٍ وكلُ مُفرَّقٍ فإلى احتشاد
فصبراً ينكشِفُ ليلٌ عميٌ وينَحسرِ البياضُ عن السواد[٤]

وكانت العقبى وبالاً على فلسطين والعرب خاصة الدول العربية التي تشدقت بتحرير الأرض المباركة وخاضت المعركة بجيوشها، إذ خرجت مخذولة تجرّ بأذيال الهزيمة. فبعدما فرض مجلس الأمن على لبنان قرار وقف إطلاق النار يوم ١٠ يونيو/حزيران ١٩٤٨م وحظر تزويد أي من أطراف الصراع بالأسلحة، توقف القتال بين العصابة الصهيونية والجيوش العربية النظامية. لكن العدو الغاشم لم يلتزم بهذا الشرط، وسعى لتعويض خسائره، وانهالت عليه الأسلحة بصورة ضخمة وخصوصاً الطائرات، كما تطوع كثيرون من

١ - المصدر نفسه، ص ٣٢٣.
٢ - المصدر نفسه.
٣ - المصدر نفسه.
٤ - المصدر نفسه.

يهود أوروبا للقتال. وخرق الاحتلال الهدنة، تحت مسمع ومرأى من الأمم المتحد والعالم بأسره وتمكن في نهاية المطاف من بسط سيطرته على مساحات واسعة من أراضي فلسطين التاريخية. وفي ٢١ يوليو/تموز توقفت المعارك بعد تهديدات من مجلس الأمن الدولي بفرض عقوبات قاسية على طرفي المعركة. وقد قبل العرب هدنة ثانية وكان هذا القبول بمثابة اعتراف بالهزيمة. الأمر الذي أدى بمجلس الأمن الدولي بأن يوصي بقبول إسرائيل عضواً كاملا في الأمم المتحدة. وفي ١١ مايو/أيار ١٩٤٩م أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذه التوصية. حسب ما جاء في «موسوعة الجزيرة» على الشبكة العنكبوتية.

٣- «اللاجئة في العيد» (١٩٥٢م)

وبعد مضي حوالي أربعة أعوام على «نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م» وتحديداً في ليلة عيد الفطر المبارك عام ١٣٧٣ للهجرة المصادف لـ ٢٢ حزيران عام ١٩٥٢م تناول الشاعر الجواهري قضية اجتماعية–سياسية كبرى من قضايا الأمة الإسلامية، ألا وهي قضية «اللاجئين» و«المشردين» الفلسطينيين في الشتات وما نتج عن هذه الظاهرة المشؤومة من آثار[١]. وقد سلّط الجواهري الضوء من خلال هذه القصيدة على قضية اللاجئين الفلسطينيين الذين شردهم الاحتلال الصهيوني البغيض المدعوم غربياً وعربياً، حيث تدفقت آلاف العوائل الفلسطينية على الأقطار المجاورة بما فيها العراق التي تدور أحداث هذه القصة فيه واستطاع أن يعريَّ الأوضاع السياسية آنذاك بطريقة فنية فريدة. وبعد سرده ظروف اللاجئة في الشتات، تطرق إلى فساد الأنظمة العربية آنداك وتداعيات هذا الفساد على مأساة الأمة بشكل عام والفلسطينيين في الشتات على وجه الخصوص ما يؤدي إلى استقواء الاستكبار في المنطقة. وراح الشاعر يستعرض عن خيال اللاجئة صبيحة عيد الفطر، تشدّق الجيوش العربية بمحاربة العدو الصهيوني وتخرصات الأنظمة الرجعية فيما يخص تحرير فلسطين وتهجير أهاليها بذريعة دعم المقاتلين وتسريع وتيرة التحرير، وترويج الحكام بأن القضاء على الصهاينة بات بين قوسين أو أدنى، ما أدى إلى نزوح أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين من ديارهم.

وصوتُ داعٍ يُناديهم ليرتحلوا كيلا يعوقوا طريقَ الزحفِ والظَفَر!

وكيْ يعودوا إلى الأوطانِ طاهرةً من رِجْسِ مُتَّشحٍ بالذُّلِّ مُعتمِر[٢]

وعندما تتذكر اللاجئة مقتل والدها ومُعيل أسرتها على يد العصابة الصهيونية، تصبح ذكرياتها أكثر ألماً. وتحزن حزنا كبيراً لإستحضار خيالها مشهد اغتيال أبيها وطعنه في صدره ما أدى إلى إراقة الدماء وتألمه حتى أن وافته المنية. وكل هذه المأساة كانت قد حدثت أمام أعينها، فقال الجواهري:

وغامَ في عينها من موتِ والِدها ما لا تُطيقُ به عينٌ على النظر

بدا لها صدرُهُ الدامي على مَضضٍ وطعنةُ «التائهِ» المستأسِدِ النعِر[٣]

وتذكرت مواقف الساسة ووسائل الإعلام حينذاك حيث أدّعوا أنه لا داعي للقلق وأنه لا خطر حقيقي يهدد القضية وأن كل الأمور تحت السيطرة ومثل هذه الحوادث هي ليست إلّا امور ناشزة وسيتم منع تكرارها، بل أبعد من ذلك سيتم تحرير فلسطين واسترجاع ما أحتل من أراضي العرب. كل هذه البيانات كانت تقال وتروّج لتخديرها الناس والتغطية على الهزائم التي منيت بها الأنظمة العربية آنذاك:

قالوا لها إنه «ضبٌّ» بلا «ذَنبٍ» و«قطَّةٌ» دونما نابٍ ولا ظُفُر!

قالوا لها إنه «مِسخٌ» بمُرتَدعٍ مما يُخيفونَهُ يُكوى ومُزدَجر[٤]

وفزعت اللاجئة الفلسطينية هذه وخافت عندما تذكرت أنها تستمع في خيالها لما كان يقوله حكام العرب الذين كانوا يفتخرون بما يسمّونها المساعي لحماية فلسطين وتحريرها. وأنها راحت تتنشيء بالنصر الخيالي الذي كانوا يدّعونه في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم

١ - محمد مهدي، الجواهري، ديوان الجواهري، ج ٤، ص ١١٣.
٢ - المصدر نفسه.
٣ - المصدر نفسه.
٤ - المصدر نفسه.

عن أن الجيوش العربية ستطّهر أولى القبلتين. فأمتنعت عن التحليق وراء طائر الخيال لترى العالم وأوضاعها على ما كانت عليه والمأساة ذاتها التي فتحت أعينها عليها صباح هذا اليوم وراح القلق يسيطر عليها بسبب المصير الذي كان ينتظرها. فختم القطعة التاسعة بهذه الأبيات الثلاث:

وراعها أنها تُصغي لمُمتدِحٍ مَسْعَى حُماةِ «فِلَسْطينٍ» ومفتخِر
وأنّها تنتشي من خمرةِ الظفَرِ في كلِّ مجتمَعٍ منهم ومؤتَمر..!
ثم ارعوَتْ فإذا الدُّنيا تُطالِعُها بما يثوبُ إليه كلُّ مفتكِر[١]

٤-«في ذكرى عدنان المالكي» (١٩٥٧م)

سافر الجواهري عام ١٩٥٦م إلى دمشق في ظروف حرجة لتأبين الشهيد السوري "عدنان المالكي" ونزل ضيفاً على وزارة الدفاع السورية، و بسبب مهاجمته حكومة بلاده في الذكرى الأولى للمالكي مُنع من دخول العراق وبقي في سوريا حتى حلول الذكرى الثانية لهذا الشهيد. حيث كانت سورية محاصرة من الخارج بالأحلاف الاستعمارية وكان خيار الوحدة مطروحاً. وقبل أن يغادر دمشق نظم قصيدة ثانية في ذكرى المالكي عام ١٩٥٧م جدّد فيها الكلام على المالكي وبطولاته وذكراه، وأشاد بالجيش السوري وذكّر بأمجاد الشام وعزّتها، ومدح الزعيم المصري «جمال عبد الناصر» وأعلن صراحة مخالفته للسلام مع إسرائيل وحثّ أبناء الأمة العربية على الجهاد والأخذ بالثأر لأولى القبلتين. وأثناء إقامته في سوريا تمنى أن يزور الجولان المحتل، ليعبر عنه شعراً كما عبر عن فلسطين[٢].

والشهيد السوري عدنان المالكي كان قد التحق بالجبهة العسكرية في عام ١٩٤٨م حين نشبت حرب فلسطين حيث تسلم قيادة سرية للمشاة فخاض غمار الحرب بشجاعة وقام خلال معركة "تل أبو الريش" باحتلال التلة التي سميت فيما بعد باسم تل المالكي كأول مهمة له على الجبهة الجنوبية، وقام العدو بخرق الهدنة وأصيب بجرح بليغ في رأسه حيث أطلقت عليه قنبلة وأصابته شظاياها من الخلف أسفل رأسه. فأسعف إلى دمشق وخضع لعملية في رأسه لإخراج الشظايا المتناثرة من جسمه. ولقب بعد نجاح هذه العملية «بالشهيد الحي»، ولم تكن جراحه تلتئم حتى عاد إلى ميدان الشجاعة وتسلم قيادة فوج من الفلسطينيين الذين قام بتدريبهم خلال فترة الهدنة لدعم «جيش الإنقاذ» الذي حوصرت قواته في منطقة «الجليل الأعلى»، فدخل المالكي عبر الأراضي اللبنانية واستطاع فك الحصار وإنقاذه[٣].

واغتيل العقيد المالكي في الملعب البلدي بدمشق يوم ٢٢ أبريل١٩٥٥م على يد رقيب في الجيش السوري يدعى «يونس عبد الرحيم »، اطلق ثلاث رصاصات على المالكي انهاها بطلقه في رأسه وبعد ذلك صوّب المسدس على رأسه وانتحر. وعلى إثر هذه الجريمة تم تحميل الحزب القومي السوري مسؤولية الاغتيال فتمت ملاحقة أعضائه وتصفيتهم[٤].

استهل الجواهري قصيدته برثاء الشهيد عدنان المالكي وتعداد مناقبه وشجاعته في الذود عن حياض الأمة، وراح يصف الوطن بأنه ضَعُفَ ومَرُضَ وانحنى ظهره بعد استشهاد هذا المناضل المقوار. و راحت اعصار الدهر تعصف بالعرب التي لحقت بهم الهزيمة تلو الهزيمة خاصة في فلسطين فلم يستطيعوا من انتزاع استقلال فلسطين من البريطانيين فحسب بل قدّمت لندن هذه الأرض المقدسة على طبق من ذهب إلى الصهاينة ليقيموا كيانهم المزعوم عليها. ويصف هذه الجريمة التي جناها الجناة بالمصيّة التي أثقلت كاهل الوطن. ويؤكد بأن عدنان المالكي هو الذي كان أهلاً للدفاع عن الوطن وإيصاله إلى الغاية المنشودة، فيقول:

ترنحت من شكاة بعدك الدار وهب بالغضب الخلاق اعصار
وأرعد الوطن الغالي وقد ثقلت عليه مما جنى الجانون أوزار
واستصرخت حلبات السبق فارسها وقد هوى وانتخى شوط ومضمار[١]

---

١ - المصدر نفسه.
٢ - فرحان، اليحيى، أزمة المواطنة في شعر الجواهري، ص ٨٧.
٣ - موقع هؤلاء حكموا سوريا: http://syrianleaders.com/persons/125/242/.
٤ - محمد مهدي، الجواهري، ديوان الجواهري، ج ٤، ص ٢٦٣.

ثم يشيد بتضحيات الشهداء الذين لقوا مصرعهم في سبيل الدفاع عن الوطن ومقارعة القوى المستكبرة ويقول بأن الموت يتقن دوره في اقتناص الرجال البواسل لينتقل بهم إلى الجنة ليصبحوا كالسراج المنير تغار منه نار جهنم. ويعتبر الشهادة دفاعاً عن الوطن الطريق الوحيد لتخلّص العرب من المؤامرات التي حيكت ضدهم من كل حدب وصوب. فبإيثارهم وتضحياتهم في هذه الدنيا سيجزيهم ربهم في الأخري بالجنات التي تجري من تحتها الانهار خالدين فيها يلبسون أزياء حيكت لهم من حرير بينما كانوا زاهدين هذه الدنيا ولا يلبسون الجميل فيها، فبالرغم من أنهم لم يتمتعوا كثيراً في هذه الدنيا ولكن الله سيعوّضهم الفردوس وسيخلّدون هناك كما وصف الله سبحانه وتعالى ظروف هؤلاء الشهداء بالجنة ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾[٢] وكأنه يبشّر المقاومين بحسن العاقبة والجنة التي هي غاية كل مسلم متديّن. فجعل دماء الشهداء نوراً لهداية الأمة وتصويب بوصلتها:

تبني الحياة وتختار الرجال ومن ورائها الموت يدري كيف يختار

جلّ الشهيد كأن الله جسده نورا" تغار به في الجنة النار

هناك حيث يحوك الخلد سندسه أما الذي حاكت الدنيا فأطمار[٣]

ويتطرق إلى ظاهرة الإستعمار المشؤومة في الدول العربية، مستحضراً التاريخ في أبرز لحظاته المتوهجة، فيلفت إلى خليجي الفارسي وعدن فيجد الإستعمار البريطاني هناك حاضراً يعبث بأقدار الناس. وعند التفاتته إلى المغرب العربي يرى الإستمعار الفرنسي منهمكاً بإراقة الدماء؛ يقتل ويذبح العرب على طريقة السفاح البريطاني. ولم تنتهِ هذه الظاهرة عند هذا الحد بل هناك طرف ثالث لا نظير له في الخبث والخدعة ألا وهو الطرف الأميركي:

على الخليجين سفّاح سندركه وفي الجزائر رهن الكف جزار

وثالث هو من خبث ومن ختل شر الأثافي لا قدر ولا نار[٤]

ويقوم بوصف وتبيين ماهية الإستمعار الأمريكي ويعدد مساوئه حيث له رفيقان بمثابة الراعي والذئب، لكن هنا الراعي متعاون مع الذئب ولا يمنعه من بقر بطن الفريسة. وينتهج هذا الإستعمار الثالث سياسة الغدر والخيانة. ويعتبر الشاعر هؤلاء المستعمرين بمثابة وجهان لعملة واحدة يتعاونان على الشعوب الضعيفة مشبهاً إياهم بالضباع والذئاب والسباع المفترسة التي لا ترحم أهلها ومن أجل الوصول إلى أهدافها وغاياتها تسحق جميع القيم الإنسانية. ويستمر مستهزئاً بحكام الدول العربية الذين يعتبرون أنفسهم حماة بلدانهم وشعوبهم ولكنهم يغدرون بالأجيال من أجل مصالحهم الدنيئة ويؤجرون ثروات بلدانهم للمستعمرين على حساب الأجيال الراهنة والمقبلة، فيقول:

له رفيقان رعيان وأذئبة ومستقران مغدور وغدار

وحش يمزق أهلوه فتتجدهم من الإعارة أنياب وأظفار

يا للحفيظة أجيال يسخرها بيع ويغلقها في الذل إيجار[٥]

وبعد الحديث عن الاستعمار وأشكاله في البلاد العربية، يلحق به الكيان الصهيوني المحتل لفلسطين ويلتفت إلى مأساة زرع هذا الكيان في خاصرة الأمة العربية. ثمّ يشير إلى إحاطة اليهود الصهاينة بالمسجد الأقصى ويمضي يعبّر عن أمنيته بزوال هذه الغدة السرطانية من الشرق الأوسط. ويقول الجواهري إن الله قضى ان تزول هذه الجرثومة الخبيثة على أيادي أناس أطهار. ويشير إلى

١ - المصدر نفسه، ص ٢٦٥.
٢ - الكهف: ٣١.
٣ - محمد مهدي الجواهري، ديوان الجواهري، ج ٤، ص ٢٦٥.
٤ - المصدر نفسه، ص ٢٦٨.
٥ - المصدر نفسه.

محاولات العدو الصهيوني للإستيلاء على مياة خليج العقبة وتمرير سفنه من هناك والوصول إلى ثاني القبلتين الشريفتين بمكة المكرمة بعد ما عاث عبثاً بالقدس الشريف. فهذا العدو لن يقف عند حد إلّا أن يتكاتف العرب ويضعون حداً له:

وفي ذرى القدس مسخ شاء خالقه أن تحتمي بحمى الأقداس أوضار

لم تكفه القِبلةُ الأولى يعيثُ بها حتى اتى القِبلةَ العصماءَ يمتار[١]

وهذه المحاولات الصهيونية للعبور من مياه خليج العقبة أدّت إلى أن ترفض المياه الطاهرة ذلك وتشتك من أن يشقّها بحارٌ من اليهود الصهاينة. وحتى الجماد ترفض إسرائيل؛ فوجود العدو الصهيوني منبوذ من قبل الجميع ولا أحد يقبل بمرور الصهاينة من مياه الخليج العقبة. لا الله يرضى بذلك ولا المكة المكرمة ولا ابوبكر الصديق ولا غار حراء. حتى آل سعود ومنطقة الطائف ومشعر منى أيضا لا يقبلون بذلك:

شكَت مياهٌ طهوراتٌ بحوزتها أن شقَّها من يهودِ الرجس بحّار

يأبى «سعود» ويأبى طائفٌ بمنىً واللهُ،والبيت،والصدِّيقُ،و«الغار»[٢]

ويصف الأمة العربية بمثابة امرأة حبلى منذ عهود وهي تعاني الحمل وألم المخاض الذي لا نهاية له، وتزداد هذه المأساة ألماً وإعناتاً بسبب الاستعمار وزرع الكيان الصهيوني في خاصرتها. الأمر الذي زاد الطين بلة وأضاف مئات المحن على معاناة العرب حتى أن أنجبت المرأة المصرية رجلاً ضرغاماً ألا وهو الزعيم جمال عبد الناصر ليضع حداً لهذه المعاناة. ويريد الشاعر بقرب زوال معاناة العرب هو اقتراب نهاية الكيان الإسرائيلي وزواله وخروج الإستعمار من الأقطار العربية:

تمخضَّت حِقَباً أرحامُها، وأتى على المخاضة إعناتٌ وإعصار

وأطبقت لم تلح عن صارم ذكر حرائر من قيون الله أطهار

حتى إذا الغيب أبدى حر صفحته وحان للأجل المضروب مقدار

تنفّس الصبح عن مصرية ولها في المهد شبل قبيل الزأر زئار[٣]

وينوه إلى مؤامرات العدو الصهيوني وحلفائه المستعمرين لخديعة جمال عبد الناصر، لكن هذا الزعيم المصري حاذق ومحنك ولم ولن تنطلي عليه هذه الخدع. فهو بمثابة عِرق وشريان الأمة العربية الذي لن ينبض للخونه ولا يخفى عليه شيئاً. وهو بعيد كل البعد عن أطباع حكام العرب، فلا يقضي نهاره مثلهم بالترف ولا ليالية تعرف أقداح الخمر واللهو وأسباب المتعة، بل يقضي أوقاته من أجل اعلاء مكانة أمته العربية:

ويمكر الثعلب الغاوي فيخدعه عن غيّه حذق في الرشد مكّار

عرق من الشعب لم ينبض بخائنة ولا التوى منه إعلان وإسرار

لا يومه ترف بالقصف منتزف ولا لياليه أقداح وأسمار[٤]

ويعود الشاعر إلى المناخ السائد في الأقطار العربية قبل زرع الكيان الصهيوني في الشرق الأوسط ويصف تلك الأيام بـ «النشوات» والسكر إذ لم يتبقَ منها إلّا القليل. فالصهاينة قضوا على الأيام الجميلة وكما كوفئ المهندس الرومي «سنمار» بعيد بناء قصر النعمان المعروف بـ «الخورنق» حيث ألقي من أعلى العمارة إلى الأرض بحجة معرفته بأسرار البناء ومداخله ولقى مصرعه فأصبحت الحكاية رمزا للغدر ونكران الجميل. فنحن العرب أيضاً عملنا من أجل الحياة ولكننا كوفئنا بالممات. وهكذا راح يلقي باللائمة على القوى المستعمرة التي لم تنصف العرب بل خانتهم وخدعتهم:

تَصرّمَت نَشواتٌ ما تَزال لها صَبابَةٌ نَغتَذِي مِنها وأستارٌ

١ - المصدر نفسه.
٢ - المصدر نفسه.
٣ - المصدر نفسه، صص ٢٦٩-٢٦٨.
٤ - المصدر نفسه، ٢٦٩.

شِدنا الحياةَ وكُوفِئنا المَماتِ كما شَادَ الخُورنَقَ كي يَردى سنمارُ[١]

ويعبّر صريحاً عن مخالفته لما يسمّى «السلام» مع الصهاينة لأنه لا يرى سبباً مقنعاً لذلك وقد أنكشف له زيف الحجج والذرائع التي كان يتذرع بها حماة هذا الخيار الإستسلامي وهكذا بدأ يدعو الأمة العربية على الثأر لفلسطين وتحرير الأرض ودحر العدو من ديارها. ويؤكد بأن الخونة يتخفّون تحت عباءة هذا الخيار من أجل الوصول إلى أهدافهم الدنيئة، بما ازدادت المأساة في ظله وبالتالي العرب لم تجن من السلم مع العدو شيئاً ومما لا ريب فيه سيعود بالضر والغبن إلى الأمة العربية. فيرفض علناً السلم الذي لا يعني سوى الضعف والاستسلام وضياع الحقوق:

كَفَرتُ بِالسِلمِ مِن بَعدَ الجنوحِ له فَقَد وَهَت حُججُ مِنه وأَعذارُ

وقد رَبَت في ظلالِ مِنه مأثمةٌ واستكلَبت فيه أضباعٌ وأنمارٌ[٢]

ويعتبر الحرب أفضل من السلام مع العدو الصهيوني لأن العدو خادع بهذا السلام وهو غير مخلص وغير مؤمن به، ويدعو الجواهري العرب بأن لايخافوا تهديدات العدو وثرثرته لأنها ناتجة عن ضعفه وهوانه وراح يحثّهم على مكافحته والإنتصار لفلسطين. فالأرض تتزلزل بهذا السلم ولايمكن أن تستقر الأرض وتقف عن هزاتها إلّا بالتضحيات والجهاد في مواجهة العدو. ويبشّر أمته بأن النصر سيكون حليفها إذا ما تركت السلام وأقبلت على الجهاد ومقارعة العدو الصهيوني:

شَرٌ من الحربِ سلمٌ خادعٌ مذقٌ في الوعدِ عيٌ وفي الإيعادِ مهذارٌ

مُزَعزَعُ مِن أديمِ الأرضِ ليس له إلا على الدَمِ إرساءُ وإقرارٌ[٣]

وبالتالي يلتفت إلى المستعمرين والغاصبين الغربيين، مخاطباً إياهم بأنّ دول الشرق ليست مزرعة كي تستغلونها لصالح منافعكم ولم تعد هذه الدول كما تريدون، لأن شعوبها واعية وعليكم أن تتفهّموا بأن فترة الانتداب قد ولّت دون رجعة. فقد تغيرت الظروف وأنكشفت الأمور على حقيقتها لأبناء دول المشرق، فيقول:

دال الزمان فليس الشرق مزرعة فيها غلال وألبان وأبقار

تمخض الكون وامتدت يد رفعت بها عن المارد الشرقي أستار[٤]

ويستمر في وصف المناخ الذي يؤكد نهاية الاستعمار في الشرق فالحفّار راح يحفر قبر الغرب والنجّار دأب على صناعة تابوت المستعمر. وراح "يرسم صورة النجار وهو طبعاً من طبقة العمّال وفي يده المطرقة وهي رمز لمهنته... والتابوت يدلّ على انهيار النظام الرأسمالي وزواله. والشعوب المستضعفة تشبه المسمار كلما طرق بالمطرقة ثبت في مكانه واشتدّ واستحكم أكثر فأكثر"[٥] فالحق بمثابة مطرقة تحني وتؤلم المتغطرسين وتقوّي الأمم المسلوبة:

وراح يحفر قبر الغرب حفار ويستجد له التابوت نجار

والحق مطرقة يلوي القوي بها وكل شعب سليب الحق مسمار[٦]

١ - المصدر نفسه، ٢٧٠.
٢ - المصدر نفسه.
٣ - المصدر نفسه.
٤ - المصدر نفسه، ص ٢٧١.
٥ - جعفر، بهاء الدين و علي أكبر، مراديان، الالتزام في شعر محمد مهدي الجواهري، ص ٤٠٤.
٦ - محمد مهدي الجواهري، ديوان الجواهري، ج ٤، ص ٢٧١.

النتائج

أ. كان الشاعر في تناوله للقضية الفلسطينية بشكل عام ويومي النكبة والنكسة خصوصا على وعي تام لواقع الهزيمة ولكنه لم يكن شاهدا على الواقع المؤلم فحسب وإنما أخذ مسؤليته على عاتقه وكان في مقدمة المحرضين الفاعلين ضد قوى الاحتلال والداعين إلى استعادة الأرض المسلوبة بقوة السلاح ما يؤكد فهمه العميق للقضية الفلسطينية. فهو لم يكتف بوصف مظاهر المعاناة والمأساة بل قارن بين الماضي المجيد لأمته وحاضرها الأليم وبالتالي اسهمت صيحاته المدوية من أعماق قلبه في شحذ الهمم واستنهاض العرب والمسلمين بشكل عام والفلسطينيين على وجه الخصوص. وكان موفقا في التحريض على مقارعة العدو والدعوة إلى المقاومة والصمود لاسترجاع الأراضي المحتلة.

ب. صوّر المأساة الفلسطينية أدق تصوير وصرخ محذّراً من مغبة المؤامرة التي دُبّرت للأقصي المبارك وحثّ الشباب الفلسطيني والعربي على المقاومة والصمود ومكافحة الغزاة واسترجاع ما احتل من فلسطين بالقوة بدلاً من الحوار مع العدو والدوران في فلك أجندته واسترضائه. واتّخذ من المناسبات التاريخية فرصة لإطلاق إنذاره وتحذيره من النيّات الخبيثة والأساليب الأجنبية والمؤامرات الخطيرة التي تحاك ضد العرب عامة وفلسطين على وجه الخصوص.

ت. أكد الشاعر أنه لاسبيل لأمّته إلّا القتال وحمل البندقية في وجه العدو، واستمر بدعوته الأمتين العربية والإسلامية لتبنّي منطق القوة والعنف لكنه لم يعوّل كثيراً على الأمة العربية إذ طلب من فلسطين أن لا تعتمد وتعوّل على العرب فهم لا يتقنون إلّا البكاء والنواح وهم أصحاب أقوال لا أفعال.

ث. اتضح أنّ الجواهري كان صانعاً ماهراً ومجيداً في لغته، فلم نجد عنده خطأ واحداً في المفردات التي وردت في شعره معجمياً، فهو ضاهى بحق في قصائده الأربعة كما ساير شعره فحول الشعرا العرب من الجاهليين حتى معاصريه ومن بعده؛ هذا إن لم يكن قد تفوق على أغلبهم.

ج. أهتمّ الجواهري بالقضية الفلسطينية اهتماماً كبيراً عبر استحضاره المكان الفلسطيني باعتباره مسرح الصراع وفق العلاقة الجدلية بين سكانه الأصليين وقوات الإحتلال وضمّن شعره دلالات نفسية وانفعالية قدمّها للمتلقي حسب السياق الشعري، مُذَكراً بذلك الأمتين العربية والإسلامية بمكانة أولى القبلتين في الحضارتين العربية والإسلامية، والمطامع الصهيوغربية تجاه هذه البقعة المباركة، فجاء المكان الفلسطيني محملا بدلالات سياسية واجتماعية وتاريخية كشفت عمّا أدّى إلى احتلال فلسطين. وكان موفقا في ابراز مكانة فلسطين التاريخية والإسلامية وأهميتها في نفوس العرب والمسلمين.

ح. كان المكان الفلسطيني في شعر الجواهري، دفقة شعورية تكمن وراء شعوره القومي والديني بغية العثور على مخرج يخلّص الأمة مما ابتليت به جراء احتلال فلسطين، فبات المكان الفلسطيني عموما وفلسطين المكان على وجه الخصوص رمزاً للمسلوب والمنكوب يرشد الإنسان العربي والإسلامي إلى الطريق الصواب ويحرضه على الأخذ بالثأر لأولى القبلتين ودحر المحتل. كما أن المسجد الاقصى المبارك لم يغيب عن ذاكرة الشاعر، ويعود ذلك إلى حد بعيد إلى وجدان الجواهري التماسك مع التراث الديني والثقافي.

خ. وملخص القول فقد كان الطابع العام لشعر الجواهري هو الالتزام بما لهذه الكلمة من معنى ويمكننا تصنيف فلسطينياته ضمن الشعر والأدب الملتزم؛ حيث حاول خلالها حثيثا أن يحافظ على أصالته العربية مع الحفاظ على إسلامية المنطلق وإنسانية الشمول وتحدث في قصائده الفلسطينية عن الصمود والمقاومة والنضال والصبر والأمل والإصرار الذي يتمتع به الشعب الفلسطيني بغية استرجاع أرضه المسلوبة.

المصادر والمآخذ

- القرآن الكريم

١. بهاء الدين، جعفر ومراديان، علي أكبر (٢٠١١م)، الالتزام في شعر محمد مهدي الجواهري، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكاتب العربي.

٢. جبران، سليمان (٢٠٠٣م)، مجمع الأضداد؛ دراسة في سيرة الجواهري وشعره، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٣. الجواهري، محمد مهدي (١٩٧٢م)، ديوان الجواهري، الجزء الأول إلى الجزء السابع، الدكتور إبراهيم السامرائي ومهدي المحزومي وعلي جواد الطاهر ورشيد بكتاش، بغداد: مطبعة الأديب.

٤. ---------- (١٩٨٨م)، ذكرياتي، الجزء الأول والثاني، الطبعة الأولى، دمشق: دار الرافدين.

٥. حريرجي، فيروز ومهدي ممتحن ورحيم انصاري بور، التناقض في شعر محمد مهدي الجواهري، فصلية دراسات الأدب المعاصر، جيرفت، العدد ١٥، ١٣٩١هـ.ش، صص ١٣٢ – ١١٥.

٦. صالح، محسن (٢٠٠٢م)، فلسطين؛ سلسلة دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، كوالالمبور (pdf).

٧. ------- (٢٠١٢م)، القضية الفلسطينية؛ خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، بيروت: الزيتونة للدراسات والاستشارات.

٨. ------ (٢٠١٣م)، حقائق وثوابت في القضية الفلسطينية؛ رؤية إسلامية، بيروت: الزيتونة للدراسات والاستشارات.

٩. صامري، خولة (٢٠١٣م)، الصراع العربي الإسرائيلي؛ حرب ١٩٤٨م أنموذجاً، الجزائر: جامعة محمد خيضر بسكرة، رسالة ماجستير.

١٠. منصوري لاريجانى، اسماعيل (١٣٧٧هـ.ش)، سيرى در انديشه دفاعى حضرت امام خمينى، تهران: بنياد حفظ آثار وارزشهايِ دفاع مقدس.

١١. موسوعة الجزيرة:

http://www.aljazeera.net/encyclopedia/military/2015/5/14/%D8%AD%D8%B1%D8%A8-1948

١٢. موقع هؤلاء حكموا سوريا:

http://syrianleaders.com/persons/125/242/

١٣. اليحيى، فرحان (٢٠٠١م)، أزمة المواطنة في شعر الجواهري، دمشق: منشورات اتحاد الكتّاب العرب.